الفصل الثاني والعشرون

عودة إلى جهينة

ولعل آخر مرة سمع بها عن جهينة بهذا الاسم ما ذكره الرحالة البريطاني جيمس بروس الذى قام برحلته المعروفة لاكتشاف منابع النيل بين سنة ١٧٦٨و ١٧٧٣م، وزار مملكة سنار أو المملكة الزرقاء أو مملكة الفونج التى قامت فى السودان على أنقاض مملكة علوة النوبية المسيحية سنة ١٥٠٤م وقد قطع بروس الحدود بين الحبشة والسودان قادما من غندار بالحبشة ، وعبر الحدود الفونجية إلى الأراضي السودانية . وفى طريقه من قرية رأس الفيل محاذيا نهر عطبرة متجها إلى سنار التقى بجماعات وأفراد من قبيلة جهينة .

ويتحدث بروس عنهم بأنهم عرب يسكنون فى الحدود بين الحبشة ومملكة سنار ، وأنهم من رعايا السلطان السناري ، وانهم كانوا عضدا لهذه المملكة فى حروبها مع الحبشة ، وأنه على حد قول بروس لما هزم ملك الفونج وتراجعت جيوشه أخذ بعض أفراد جهينة بعض السبايا الحبشيات وذهبوا بهن إلى سنار .[1]

ويقارن بروس بين جهينة وقبيلة الضباينة دون أن يذكر أن هؤلاء الأخيرين فى الأصل بطن من بطون جهينة[2] التى انبثقت منها هذه القبيلة

---

[1] المعروف أن سلطنة سنار لم تهزم قط فى معاركها ضد الغزوات الحبشية .

[2] يقول الضبانية بأنهم من جهينة ، ولكن ربما كانوا من ذبيان العدنانية . راجع الحديث عن الضبانية

وغيرها فى الأراضي السودانية . ويمضى بروس قائلا إن العلاقات بين جهينة والضباينة لم تكن على ما يرام ، وأن الضباينة كانوا أهل بداوة ولهم اليد العليا على جهينة ، وأنهم كانوا يغزون قرى جهينة ، ويحرقون حقولهم الزراعية ، ويحصدون غلتها عنوة ، ويستولون على ما فى مطاميرهم من ذرة . ويبدو أن فكرة بروس عن قوة جهينة كانت سيئة للغاية ، ولعل السبب فى ذلك تهجم أحد العرب عليه وعلى أحد تابعيه ، وادعاء ذلك العربي أنه شيخ من شيوخ جهينة ، إذ تصدى له أحد أتباع بروس ، وكان تركيا وقال له متحديا إن كنت أنت جهنيا فأنا ضبياني ، ثم هجم على الأعرابي ، وطرحه أرضا ، وسلبه سيفه ، مما دعا الأعرابي فى آخر الأمر للادعاء بأنه إنما كان يمزح معهم . وعلى العموم فإن بروس كان واضحا مما كتب أنه كان يحمل فى نفسه كثيرا من الضغن للمسلمين ، وأنه كان يظهر من مثالبهم ما قاده إليه هواه ولذلك فقد وجدته متحاملا على كل ما هو عربي مسلم .

وعندما كان بروس يسير فى طريقه إلى سنار ، وصل إلى مقر الشيخ فضيل شيخ إقليم نهر عطبرة ، وهناك عالج فضيل من داء فى بطنه كان يشكو منه ، وكان فضيل يريد أن يتقيأ دون أن يجد لذلك سبيلا ، فأعطاه بروس دواء أسعفه به ، ثم طلب منه فضيل أن يفحص اثنتين من زوجاته لإعطائهن نفس الدواء . ويحدثنا بروس بأنه وجد إحدى زوجات فضيل امرأة في منتصف العمر ، وكان لها بنت فى الخامسة عشر من عمرها . وكانت هذه الفتاة بحق رائعة الجمال ، قمحية اللون – أى أنها لم تكن سوداء البشرة – شعرها لم يكن فلفلا مجعدا ، بل كان غزيرا طويلا مرسلا ، أما قوامها فقد قال بأنه يصلح لأن يكون نموذجا أمام فنان ليرسمه بسبب

جماله الأخاذ . وكان ظاهرا من حديث بـروس أن هـذه الفتـاة كـانت تتمتـع بجاذبية لم يشهدها فى غيرها طوال رحلته . وتحدث عن لبسـها وأهـم مـا فيـه أنها كانت تغطى رأسها من قمته إلى أخمص قدميها ، ولكنه رأى وجهها فقط عندما كانت تداعبها إحدى جواريها فنزعت عنها طرحتها . وكان اسم هذه الفتاة عائشة . [٣]ويذكر بروس أنه " قد فوجئ بكـل هـذا الجمـال العظيـم " عندمـا رآهـا إذ كـانت تقاطيعهـا بـلا أخطـاء ، كمـا كـانت دهشـته تلـك ، وإعجابه ظاهرا لكل أولئك النسـوة المرضـى منهـن والصحـاح اللائـى كـن حوله .

ويبدو أن عائشة كانت ذكية جريئـة إذ أنهـا أرادت أن تعـرف شـيئا عن نساء إنجلترا، فقالت له بأنه لن يرى فى بنـات نهـر عطـبرة جمـالا بعـد أن رأى جمال الحبشيات ، أما نساء أوربا فهن بلا شك بيضاوات البشرة وأنهـن أجمل نساء العالم قاطبة .

وتمضى المداعبة بين بروس ونساء الشيخ فضيل وعائشـة ، فتقـول له والدتها بأنه لو كانت عائشة مريضة اليوم لما اهتممـت بـأى منـا . ويؤمـن بروس على رأيها هذا بأنه لو كانت عائشة بالفعل مريضة لوجد نفسـه عليـلا ولأخفق فى علاج أى منهن .

وقـد قـابل بـروس بـالفعل أحـد شـيوخ قبيلـة جهينـة بـالقرب مـن عاصمتهم فى جبل أسـرف والتـى كـانت هدفـا تغير عليـه قبيلـة الضباينـة . وذكر بأنه فى ١٣ إبريل جاء أعرابي من جهينة وهو يحمل أخبارا مفادهـا أن حاكم نارا الحبشى قد استولى على قافلة ملح . وكان شيخ جهينة هذا رجـلا

---

[٣] جيمس بروس : ص ١١٢-١١٣ . مجلده

متقدما فى السن له وقاره واحترامه ، وكان معه عشرة أو أثنا عشر رجلا من قبيلته جاءوا على ظهور الإبل للشيخ فضيل .

لم يذكر بروس شيئا كثيرا عن شيخ جهينة أو رجاله ، ولم يعر وجودهم كبير اهتمام ربما لأنهم لم يكن لهم مقر كبير أو سلطة واسعة كتلك التى كانت لغيرهم . وربما كان رجال جهينة هؤلاء هم آخر من بقى من القبيلة باسمها التاريخي الذى رحلت به من الجزيرة العربية إذ أننا لا نصادفهم بعد ذلك فى رحلته إلى سنار ، ثم إلى شندى حتى خروجه من الأراضي السودانية . وربما كانت هذه الجماعات الجهنية التى وصلت إلى تلك الأصقاع النائية هى البقية الباقية من الأصول الجهنية التى ظلت متمسكة باسمها والتى لم يعد لها خطورتها فى الحرب والسلم كما كانت فى عهد ابن خلدون فى القرن الخامس عشر (٨٠٨هـ / ١٤٠٦م) .

هكذا نجد أن هذه الرحلة ربما كانت آخر الرحلات التى تصادفنا وفيها جهينة ، أما بعد ذلك فإننا نجد أبناء جهينة قد تفرقوا فى البلاد أيدى سبأ ، وأصبح لكل منهم قبيلة جديدة متماسكة الأطراف ولكنها ترجع فى أصولها إلى جهينة التى أصبحت اسما حفظه التاريخ .

انتمت قبيلة الجعليين إلى هذه العترة العباسية الكريمة النسب [٤] .ومما تجدر الإشارة إليه أن السودانيين قاطبة منذ أن انتشرت القبائل العربية فى

---

[٤] يقول الدكتور يوسف فضل (ص ١٤٥) يصعب ايجاد الدليل على أن زعم الجعليين بأنهم عباسيون لأنه لم يجد ذكر هجرة عباسية ، غير أنه لا يستبعد هجرة بعض العباسيين دون أن يذكر ذلك فى المصادر . وهناك رواية لم يذكرها أحد من الجعليين بأن بعض العباسيين قد فروا من الفاطميين غير أن الأقرب الى التصديق هو نزوح بعض أقرباء الخلفاء العباسيين الذين لجأوا الى مصر فى كنف المماليك قد وجدوا ملاذا أفضل بين قبائل جهينة ومن معها من عربان فى السودان بين عطبرة وشلال السبلوقة

السودان قبل القرن السادس عشر الميلادى وخلاله وبعده لم يتهموا الجعليين فى نسبهم العباسي ، بل اعترفوا به وقبلوه . وحتى فى آخر أيام المهدية عندما أعد الخليفة عبد ا لله بن محمد جيشه للدفاع عن السودان ضد القوات البريطانية ومن معها ، وضع المقاتلين الجعليين فى أحد أجنحة الجيش المتقدمة ، وقال لهم بأنه يفعل ذلك تيمنا بقرابتهم من النبي (ص) . وقد فسر بعض الناس تصرفه هذا على أنه كان يريد أن يقضى على الجعليين فى المعركة الفاصلة ضد قوات الجيش الغازى فى معركة كررى من ناحية ، ولكى لا يركنوا إلى الفرار من ناحية أخرى ، وهذا ما قاله كتاب المخابرات الإنجليزية الذين صحبوا الجيش الغازى . ولكن من يعرف الجعليين وكفاحهم الذى يستميتون فيه ، وتجنبهم ما يسئ إلى سمعتهم وتاريخهم يعرف أن الخليفة عبد ا لله إنما وضعهم فى المقدمة ليستميتوا وليستميت معهم من كان فى ذلك الجناح . وإضافة لذلك فان الخليفة عبد ا لله وجيشه السوداني الباسل الذى جمع الجموع من الشرق والغرب ومن الشمال والجنوب لم يخرج ليواجه هزيمة ، ولكنه خرج وهو موقن من النصر وهو يهتف فى كل خطوة للأمام (ا لله اكبر ، ا لله أكبر). فالجعليون هم خليط من المصاهرة الجهنية العباسية التى حدثت فى السودان فى أراضى الجعليين المعروفة الآن ، وهم الذين قاوموا جيش الأمير إسماعيل بن محمد على ، وقضوا على الأمير مع حراسه وجنوده إبان فتح محمد على باشا للسودان سنة ١٨٢٢.

وعلى العموم فإنه لا يمكن أن يطعن فى هذا النسب العباسي أو أى نسب عربي فى السودان لأنه من الصعب على القبائل العربية الادعاء بنسب لا ينتمون إليه لأن بقية القبائل المهاجرة تعرف أصولهم وأنسابهم ، وقد يعيرونهم بسبب هذا الادعاء . ولذلك فليس هناك شك فى أن الأنساب

العربية التى ذكرتها القبائل عن نفسها كانت صحيحة إلى حد كبير ، وأنه كان معترفا بها لدى الجميع كما كانت الحال فى الجزيرة العربية مع الأخذ فى الاعتبار صلة الموالي والأحلاف التى كانت معروفة ومعترفا بها لدى العرب منذ الجاهلية .

وقد يتبادر إلى الأذهان أن لفظ العباسين لا يطلق إلا على من كان من نسل العباس ، ولكن كما نعرف من تاريخ العرب والمسلمين فإن الأمويين والعباسيين والفاطميين والعثمانيين وغيرهم من أسر ملكية جاءت بعد ذلك إنما يمثلون حقبا لأسر حاكمة ، وأنه لا يعنى الرجوع بالنسب إلى أى من هؤلاء الذين تنتسب إليهم الرعية . وهكذا كان الأمر مع الجعليين وغيرهم من القبائل الأخرى التى ألحقت نسبها ببعض أشراف قريش أو العرب ، فان هذا الانتساب يعود إلى الزعماء فقط . وقد فسر هذا الأمر الدكتور يوسف فضل حين تحدث عن انتساب القبائل البجاوية إلى العرب فقال بأنه لا يمكن تصديق مزاعم البجة التى تقول بأنهم عرب كما أنه لا يمكن تصديق سلسلة أنسابهم التى يدعونها ، ولكن بكل تأكيد فإن رؤساء قبائل البجة على الأقل هم من العرب إذ أنهم استولوا على ملك القبيلة عن طريق توريث ابن البنت [٥]، أما بقية القبيلة فقد أصبحت تبعا لذلك عربية " . وهذا ما يستند عليه قولنا أنه ليس كل العباسيين من أولاد العباس ، وليس كل الأمويين من أولاد أمية ، وهكذا فإنما الناس على دين ملوكهم .

والمعروف أن كثيرا من القبائل العربية اختلطت بعامة البجة وبزعمائهم ، ورأينا كيف أن ربيعة ومضر وجهينة كانت قد كونت اتحادا مع

---

[٥] يوسف فضل ، ص ١٣٨ .

البجة بنسبة العشر تقريبا منذ أن صهرت ربيعة فى البجة بعد سنة ٢٤٠هـ . ولنترك الآن الحديث عن القبائل البجاوية لنعود إليه فى موضعه .

ومن تتبع أخبار الجعليين نجد أن اسمهم الذى اختاروه لأنفسهم ، أو اختارته لهم القبائل الأخرى هو اسم حديث لا يرجع إلى أية قبيلة عربية معروفة فى الجزيرة العربية ، ولا يبدو أن هناك صلة بين الجعليين وبين قبيلة بنى جعل التى ذكرها ابن دقماق المتوفى سنة ٨٠٩هـ / ١٤٠٦م حين قال بأن هناك قبيلة عربية تعرف ببنى جعل ، ويبدو وأنها شهدت الفتح إذ أن لها موضعا معروفا باسمهم فى الفسطاط ، وعد ابن دقماق موضعهم على أنه من الأماكن المهمة . [٦] والسبب فى استبعاد الصلة بين هؤلاء الجعليين وبنى جعل هو انتماء الجعليين السودانيين إلى العباسيين والجهنيين .

أما إبراهيم جعل جد جعليِّي السودان فإن الروايات تفيد بأنه كان يجمع الناس حوله من كل حدب وصوب . وكان رجلا كريما ينفق عن سعة . ولهذا فقد دانت له بطون جهينة وأحلافها من العربان ، والتفوا حول دياره ، وقد استطاع هذا الزعيم الجعلى أن يتزعم أراضي شاسعة على النيل تكثر فيها الزراعة كما أنها منتجة للأعلاف والمراعي . وكانت إقامة هؤلاء العرب إقامة توطين واستقرار وبناء للبيوت بالآجر الأخضر والأحمر فى المدن . أما الخيام فقد انتشرت فى الفضاء الشاسع المجاور لهذه المدن والقرى الحضرية . ومن هنا ظهرت كل من المتَمَّة فى غرب النيل وشندي فى شرقه كعاصمتين للجعليين ، وازدهرت تجارة شندي خاصة ، وكان يؤمها التجار والقوافل القادمة من مصر من الشمال ، والقادمة من الحجاز والهند وما وراء

---

[٦] ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار – بولاق ١٨٩٣ .

ذلك وما بينهما عبر ميناء سواكن ، كما كانت هناك تجارة وبضائع تصل من النيل الأبيض والنيل الأزرق ، ومن كردفان وكسلا أيضا .

ولم يشتهر الجعليون بشيء اشتهارهم بالمثل العليا التى وضعوها لأنفسهم والتزموا بالاتسام بها من حيث بز أقرانهم عند الشدائد ، فالمثل المعروف بين سائر السودانيين الذى يقول " الجعلى يقضى يومه خنق " يوضح قوة عزيمة الجعلي الذى يلزم نفسه بأصعب الأمور دون أن يشكو لأحد ولو انقضى ذلك اليوم وهو مخنوق . كذلك نجد السودانيين قاطبة يلزمون بعضهم بعضا بالصبر على الشدائد ، فتارة يقول الرجل لصاحبه " يا زول ، ما تجوعل " أى " أيها الرجل الهمام ، صبرا على الشدائد وكن جعليا " وتارة يقول لصاحبه وذلك حين يصيب الفزع صاحبه : " مالك ؟ ماك جعلى " . أى " ماذا بك ، ألست جعليا تصبر على ما أنت فيه من شدة وكرب . " وهكذا أصبحت رجولة الجعلي وصبره على المكاره حافزا لكل السودانيين لكي يتسربلوا بلباس الصبر دون حدود . ومما لا شك فيه أن هذه الأسس الأخلاقية سادت فى السودان ، وأخذ يتحلى بها كل من كان جعليا وغير جعلي ، وأضحت الشيم الغالبة على معظم أهالي السودان إن لم يكن جلهم .

وانتشرت بطون الجعليين على ضفاف النيل من عطبرة حتى شلال السبلوقة شمالي الخرطوم على بعد ثلاثين ميلا تقريبا . إلا أنهم فى جميع العهود كانوا يسافرون من مكان لآخر فى سائر أنحاء البلاد ، وأنشأوا أماكن وقرى لإقامتهم فى جهات عدة بالأراضي السودانية .

وقد اختلط الجعليون كغيرهم من القبائل العربية بسكان هذه المنطقة الأصليين ممن سبقوهم إليها ، وهم أبناء مملكة علوة الذين عرفوا باسم العنج . إلا أن هذا الاسم لم يعد يمثل قبيلا من الناس وكأنما اندثر أصحابه

تماما . واستطاع أبناء جهينة هؤلاء أن يجعلوا لغتهم العربية الدارجة تسيطر على كل لغة أخرى قديمة حتى لم يعد للغة القديمة أى أثر فى هذه المنطقة وأصبحت اللغة العربية العامية هى اللغة الوحيدة الموجودة فى تلك المنطقة والتى يتكلم بها سائر الناس ، وما ذلك إلا لارتباط اللغة العربية الفصحى التى انبثقت منها اللغة العامية بالقرآن الكريم .